بسم الله الرحمان الرحيم

الله أكبر
الله أكبر
الله أكبر

بقلوب واجفة و عيون دامعة، نشيع اليوم جثمان أحد أقطاب الحركة الوطنية التونسية الى مثواه الأخير.
و برغم الخلاف الكبير الذي حدث بيني و بين أعضاء اللجنة التنفيذية للحزب الحر الدستوري التونسي في شهر سبتمبر سنة 1955 بشأن مشاركة الحزب في وزارة السيد الطاهر بن عمار الثانية المكلفة بتطبيق اتفاقيات الاستقلال الداخلي الأمر الذي اضطرني الى الاستقالة من اللجنة التنفيذية و انسلاخي عن الحزب نهائيا. برغم ذلك فاني أرى من واجبي اليوم بوصفي كنت مديرا عاما للحزب ورفيقا في الكفاح الوطني للفقيد الكريم طوال سنوات عديدة، أرى من واجبي أن أقوم بواجب رثائه و الاشادة بمواقفه الوطنية التي لا يعرف عنها شباب اليوم شيئا، تلك المواقف التي كانت نقاطا بارزة في مسار الحركة الوطنية لا يصح أن يغفلها أي مؤرخ نزيه لتلك الحركة.

و الذي يلفت النظر في النشاط الوطني للفقيد الكريم و انغماره في الحركة منذ فجر شبابه أي منذ فتح أول ناد للحزب في نهج أنكلترا — والذي أصبح فيما بعد مكتبا له — و ذلك في أوائل سنة 1922، ان الفقيد ينحدر من أسرة أرستقراطية بارزة لها صلة متينة بالعائلة الحسينية المالكة و كان جده قد مارس عاملا لها في ولاية الكاف ابان استعمال الثورة الشعبية بزعامة علي بن غذاهم و قد قتله الثوار بوصفه من أعد قحكم البايات المستبدين. ثم ان الفقيد الكريم لم يتلق ثقافة عربية صحيحة تثبت فيه وعيا قوميا صادقا قبل كانت ثقافته فرنسية نتيجة الغزو الثقافي الاستعماري فكان طليعا في اللغة الفرنسية و آدابها لدرجة أنه كان ينظم الشعر بها وله ديوان شعري مطبوع بتلك اللغة حتى أن صديقه وصهره و رفيقه في الكفاح المرحوم الشاذلي خزندار عيره بذلك قائلا:

وصالح فرحات وحسبك أنه ... صديقي ولكن خالف العرب منطقا ..

فهذان العاملان: انتماؤه الى عائلة أرستوقراطية كبيرة لها صلة بالعائلة المالكة، و ثقافته الفرنسية، من شأنهما أن يباعدا بينه و بين أي نشاط وطني. ولكن الغريب حقا أن الواقع في حياة الفقيد الكريم كان مخالفا للنتيجة التي كان ينبغي أن تستخلص من ذلك: ابتعاد عن كل نشاط وطني وانكباب على المصلحة الخاصة شأن أغلبية الشباب المتخرج من المدارس الفرنسية. لكن شعلة الوطنية التي اتقدت في روحه منذ شبابه الباكر استطاعت أن تتخطى كل هذه الحواجز و الموانع وأن تبرزه في مقدمة ركب الوطنيين في ساحة الكفاح السياسي الوطني.

وهكذا أصطفع الفقيد الكريم بمنصب نائب الأمين العام للحزب المرحوم الأستاذ أحمد الصافي منذ سنة 1922 الى سنة 1935 عندما توفي الأستاذ أحمد الصافي وخلفه فقيدنا في الأمانة العامة للحزب التي استمر في حمل أعبائها أكثر من عشرين سنة و في أحرج الظروف التي مرت بها البلاد و حركتها الوطنية.

ولا يسعني في هذا المقام الا أن أشير الى بعض مواقف الفقيد البارزة و التي كان لها تأثير حاسم في مسار الحركة الوطنية والتمهيد لاستقلال البلاد رغم بعض الانتكاسات التي أصابت الحركة.

الموقف الأول حدث في صائفة سنة 1944 عندما أوعز المقيم الجنرال مأسط لبعض العملاء من التونسيين بالاتصال برجال الحركة الوطنية لاقناعهم بالمشاركة في لجنة الاصلاحات التي كان يعتزم تشكيلها مناصفة من التونسيين و الفرنسيين للنظر في مجرد ((اصلاحات)) في نطاق وضع الحماية الفرنسية.. و قد

كانت هذه المبادرة من المقيم بايعاز من حكومة الجنرال ديغول بعد نجاح نزول الحلفاء بفرنسا و اطباق الجيش السوفياتي على ألمانيا النازية من الشرق حيث اتضحت نتيجة الحرب بانتصار الحلفاء كما اتضحت التغييرات السياسية الجذرية المتوقعة في التوازن الدولي و بالتالي اهتزاز النظام السياسي الدولي و في مقدمته النظام الاستعماري فأرادت حكومة ديغول أن تسبق الأحداث باحداث نظام جديد للاستعمار الفرنسي و هو نظام الوحدة الفرنسية الذي كان من أهم توصيات المؤتمر الاستعماري الفرنسي الكبير الذي انعقد ببرازفيل في أفريل 1944 بزعامة الجنرال ديغول .. ولم يكن هذا النظام في الحقيقة الا تشديدا لقبضة فرنسا على امبراطوريتها الاستعمارية ..

وبناء على ايعاز الحكومة الفرنسية السابق الذكر للمقيم ماسط تحرك عملاء فرنسا و اتصلوا برجال الحركة الوطنية - ومنهم الأستاذ صالح فرحات - وعرضوا عليهم عقد اجتماع مع بعض المحايدين و بعض أعضاء المجلس الكبير للنظر في مقترح المقيم بالمشاركة في لجنة الاصلاحات الآنفة الذكر و قبل الأستاذ فرحات المشاركة في الاجتماع الذي اقترحوه . ولم يكن هدفه في الحقيقة الا افساد مشروع المقيم العام .

وقد انعقد ذلك الاجتماع فعلا في شهر أوت سنة 1944 بمقهى ((الروتوند)) بحلق الوادي و تمكن الأستاذ فرحات من احباط ذلك المشروع بموافقة و مشاركة زعيم الديوان السياسي الأستاذ الحبيب بورقيبة في ذلك الوقت.

ولم يكتف الأستاذ فرحات بهذا الرد للفعل في احباط المشروع الفرنسي بل قام بفعل ايجابي لايجاد بديل وطني له فاقترح على زميله الزعيم بورقيبة احداث لجنة من الوطنيين و من بعض المحايدين الذين تمكن مشاركتهم في هذه اللجنة للنظر في وضع منهاج مشترك للخطة السياسية التي ينبغي وضعها في تلك الظروف و تحظى بموافقة الجميع .. حتى يقطع الطريق على تحركات الاقامة العامة الفرنسية و على عملائها .

و استجاب الزعيم بورقيبة لهذا الاقتراح و تألفت لجنة من سبعة منهم الزعيم بورقيبة و الأستاذ فرحات و منهم الأستاذ محمد بدرة رحمه الله و الشيخ الفاضل بن عاشور . و كانت تعقد اجتماعاتها بمكتب الأستاذ فرحات بنهج لنقلترا .

وبعد عدة اجتماعات لهذه اللجنة استغرقت عدة أشهر وقع الاتفاق على المطالبة بالحكم الذاتي (سالف ڤوفارنمان) و وضعت صيغة لهذا الطلب اتفق عليها الجميع بعد مأمور الأستاذ فرحات على ادخال تحفظ جوهري على تلك الصيغة يتمثل في كلمة واحدة هي ((الآن)) يعني أن المطالبة بالحكم الذاتي هو طلب وقتي نظرا لظروف الحرب القائمة أما بعد الحرب فالأمر يختلف .

وفي الحقيقة فان تحفظ الأستاذ فرحات على تلك الصيغة كان مراعاة لتوصية المؤتمر الدستوري السري المنعقد في أوائل شهر سبتمبر 1944 بمنزل الدكتور أحمد بن ميلاد في حي الحلفاوين حسب اشارة من رئيس الحزب المرحوم الشيخ عبد العزيز الثعالبي قبيل موته و بتوصية منه بموافقة المؤتمر على المطالبة بالاستقلال التام و رفض جميع الحلول المنقوصة الأخرى.

و فعلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها وقع الاتصال بزعماء الحزبين للنظر في مستقبل القضية التونسية و تم الاتفاق على تأليف لجنة من ثمانية أعضاء نصفها من أعضاء اللجنة التنفيذية و نصفها من أعضاء الديوان السياسي.

واستمرت اجتماعات هذه اللجنة من شهر أكتوبر 1945 الى شهر أوت 1946 . وأسفرت تلك الاجتماعات عن الغاء الحكم الذاتي الآنف الذكر و المطالبة بالاستقلال التام و وضعت اللجنة صيغة لهذا الطلب تتضمن زيادة عن الاستقلال التام الانضمام الى الأمم المتحدة و الجامعة العربية .

ولكي يكون لهذه الوثيقة ثقلها ووزنها في المحافل الدولية و في السياسة السياسية فقد رؤي أن لا يقتصر الأمر على الحزبين السياسيين بل ينبغي طرحها على الشعب بمختلف فئاته و منظماته و بزعمائه للحصول على موافقته وذلك بعقد مؤتمر شعبي لهذا الغرض.

وانعقد هذا المؤتمر فعلا بصفة سرية ، نظرا لقيام الحكم العسكري آنذاك و شارك فيه أكثر من أربعمائة شخص .
وقد كان هذا المؤتمر أول مؤتمر شعبي منذ انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد ، و مثل الشعب التونسي تمثيلا حقيقيا جماعيا لا حزبيا و كانت الوثيقة الصادرة عنه بمثابة ميثاق وطني شعبي التزم به الجميع . . .

انعقد هذا المؤتمر ليلة السابع و العشرين من رمضان 1365 وفق مساء الثالث و العشرين من شهر أوت 1946 بمنزل أحد الوطنيين بنهج الملاحة ، واختير لرئاسته شخصية نزيهة محايدة هو المرحوم السيد العروسي الحداد رئيس المحكمة الجنائية سابقا (وكان محالا على الحقاد) .

ولكن بعد ما ألقى الأستاذ فرحات خطابه في بداية المؤتمر اقتحم القاعة الجند الفرنسي المدجج بالسلاح و أمر الحاضرين بفض الاجتماع . . وحدثت ضجة في الحاضرين وأصر بعضهم على عدم الاستجابة لطلب الجند و نصح آخرون بالاستجابة لذلك الطلب . وكاد الزحام يفلت من (كذا) القادة ويحدث ما لا تحمد عقباه . والأخطر من ذلك هو انفضاض المؤتمر بدون حصول النتيجة التي انعقد من أجلها . . وهنا كان الموقف الرائع الشجاع الذي وقفه الفقيد الكريم . . فقد انتصب واقفا مخاطبا الجمهور بصوته الجهوري قائلا : أيها الاخوان لقد جمعناكم اليوم لأخذ موافقتكم على المطالبة بالاستقلال التام للبلاد فهل أنتم موافقون . فدوت القاعة من جميع الحاضرين نعم نحن موافقون ، موافقون على الاستقلال التام .

وهكذا وقعت المصادقة بالاجماع على وثيقة الاستقلال التام من طرف أكبر مؤتمر شعبي في تاريخ البلاد .

هذه بعض مواقف الفقيد الكريم التي يسجلها له التاريخ ذكرتها و نحن بصدد وداعه في مثواه الأخير .

ولا يفوتني هنا أن أشير الى براعته في مخادعة السلط الاستعمارية و مراوغتها و الافلات من قبضتها الحديدية بدون أن يخل ذلك بمواقفه الوطنية التي أشرت الى بعضها . كما لا يفوتني أن أنوه بخصال الفقيد الكريم و دماثة أخلاقه وبره البالغ بأسرته فلم أر في حياتي أبا شفوقا و حنونا على أبنائه بمثل تلك الشفقة وذلك الحنان اللذين أحاط بهما أبناءه حتى لكاد يضعان قيدا على تحركه السياسي .

كما لا يفوتني هنا أيضا أن أنوه بلفتة سيادة الرئيس بورقيبة الى الفقيد الكريم بمنحه وسام الاستقلال اعترافا بفضله و جهوده في خدمة القضية الوطنية التي توجت بالاستقلال التام على يد الزعيم و الرئيس الحبيب بورقيبة .

رحم الله الفقيد الكريم و جازاه عن أمته أحسن الجزاء و بوأه مقاما محمودا في جنة الرضوان .

محمد الحبيب شلبي

المدير العام للحزب الحر الدستوري التونسي سابقا .